اكتشاف اميركا واحتلالها

تابع ما قبلهُ

ديانة اهالي المكسيك — كان الازتك منهم يقولون بالهٍ واحد خالق للكون ويخاطبونهُ في في صلواتهم قائلين " ايها الاله الذي بهِ نحيا الحاضر في كل مكان الذي يعرف كل الافكار ويهب كل العطايا . الذي بدونهِ يصير الانسان هباءً منثوراً الاله الواحد الذي لا يُرى ولا جسم لهُ كال الكمال والطهارة . الذي نجد تحت جناحيهِ الراحة والملجأ الامين " . وكأنهُ تعذّر عليهم ان يتصوّروهُ واحداً لا شريك لهُ فاشركوا معهُ آلهة اخرى قالوا انها متسلطة على فصول السنة واعمال الانسان وهي ثلاثة عشر من الآلهة الكبار ونحو مئتين من الآلهة الصغار ولكلٍّ من هذه الآلهة يوم من السنة يعيدون لهُ فيهِ وعليها كلها إله الحرب وهو الاله الخاص بالامة المكسيكية ولذلك كانت هياكلهُ اضخم الهياكل وكانت الضحايا البشرية تضحّى على مذابحهِ في كل مدن المملكة

ومن آلهتهم ايضاً اله الهواء وهو الذي علّم الناس الفلاحة واستخراج المعادن وسياسة البلدان . وبهِ تزهر الاشجار وتثمر وتنبت الغلال وتأتي بالحبوب واسمهُ عندهم كوانزلكوتل وقد قالوا انهُ رجل ابيض اتاهم من الجهات الشمالية الشرقية قاطعاً البحر الاتلنتيكي بقارب لهُ اجنحة (اي شراع) كالسفن الاسبانية واقام بينهم سنين كثيرة وعلمهم ديانة جديدة ونظّم لهم حكومة عادلة وعلمهم صنائع كثيرة نافعة وكان طويل القامة واسع الجبين كبير اللحية اسود الشعر لابساً جبّة طويلة وفوقها رداء معلم بالصلبان وكان عفيفاً متقشفاً كثير الصوم والتهجّد يحب السلم ويكره الحرب فاحبهُ الجميع واكرموهُ لتقواهُ وفضائلهِ واستولى الامن على البلاد في ايامهِ وكثرت خيراتها ثم اضطرّ لسبب من الاسباب ان يترك البلاد فنزل الى خليج المكسيك وطيب قلوب الاهالي الذين حضروا لوداعهِ ووعدهم ان يعود اليهم بنفسهِ بعد قليل او يرسل اليهم واحداً من قبلهِ عوضاً عنهُ . وكان قد صنع لنفسهِ سفينة من جلود الافاعي فسافر بها الى بلادهِ الجزيرة المقدسة عبر الاوقيانوس العظيم . واسم هذا الرسول في لغتهم كوانزلكوتل اي الحية الخضراء ومعنى الاخضر عندهم الفاخر او النفيس

ولما دخل الاسبانيون بلاد المكسيك رحّب بهم الاهالي حاسبين انهم اتوا من قبل هذا الرسول لانهم بيض الوجوه طوال اللحى مثلهُ وقد اتوا بسفن ذات شراع مثل السفينة التي اتى بها . فلم يصرفهم الاسبانيون عن هذا الزعم ولذلك تمكنوا من اخضاع البلاد بسهولة

وقد اختلف الباحثون في حقيقة هذا الرجل . اما الاسبانيون الاولون الذين دخلوا المكسيك فحسبوا انهُ احد المبشرين المسيحيين ذهب اليها من اوربا وقالوا انهم رأوا في ديانة اهالي المكسيك شيئاً من المشابهة الديانة المسيحية ولكنها لم تكن مقتصرة على ذلك بل كانت وثنية تعتمد على الذبائح البشرية . وقيل لهم ان هذا الرسول علَّم ديانتهُ للاهالي الاصليين وكانوا اهل علم وصناعة ثم هاجروا من البلاد في القرن الحادي عشر للميلاد واستولى عليها شعب الازتك وكانت ديانتهم فاسدة قائمة بالشعائر الدموية ولم يستقم امرهم الاَّ في اواسط القرن الرابع عشر فاقتبسوا ما بقي في البلاد من عوائد الشعب السابق وديانتهم ومزجوا ذلك بعوائدهم وديانتهم فصارت مجمع الاضداد من اللين والقسوة والفضيلة والرذيلة والعلم والجهل والتمدن والتوحش لامتزاجها من عقائد الشعب الاول وعقائد الشعب الثاني . وفي جملة عقائد الشعب الاول الاعتقاد بوجود اله واحد قدير خالق للكون ومتسلط عليهِ وهو مصدر كل خير وتحتهُ آلهة صغيرة ويقابلهُ شخص شرير وهو المسبب للشرور كلها والاعتقاد بوجود دار للثواب يقيم فيها الصالحون بعد الموت ودار اخرى للعقاب يقيم فيها الاشرار ودار متوسطة بين بين . وبأن للناس أُمًّا واحدة وبها اتت الخطية الى العالم ويصورون معها حيَّة حيثما صوروها . وبأنهُ حدث في الارض طوفان عام لم ينجُ منهُ الاَّ عائلة واحدة ونجا ايضاً قوم من الجبابرة الاشرار فبنوا هرماً عظيماً يصل رأسهُ الى السحاب ولكن الآلهة امطرت عليهم ناراً فصرفتهم عن العمل

والآراء مختلفة في حقيقة هذا الرجل واقربها الى الصواب في رأينا ما اثبتناهُ في المجلد الخامس عشر من المقتطف في الكلام على رسول المكسيك وهو انهُ المطران برفون الارلندي وانهُ زار بلاد المكسيك في اواسط القرن السادس وبقي فيها سبع سنوات وهو يبشر اهاليهم ويعلمهم ثم عاد الى بلادهِ وتوفي فيها سنة ٥٧٨ وعمرهُ اربع وتسعون سنة . ثم امتزجت تعاليمهُ بالتعاليم الوثنيَّة التي كانت في البلاد قبلهُ او دخلتها بعدهُ فصارت منها ديانة اهالي المكسيك والكلام في هذه الديانة يملأُ مجلداً كبيراً فنقتصر منهُ على ما تقدَّم

وكانت آدابهم الدينية في الطبقة الاولى وحسبك قولهم سالموا جميع الناس . لا تنتقموا لانفسكم ينتقم الله لكم . وكان عندهم كثيرون من الكهنة حتى قيل انهُ كان في احد هياكلهم خمسة آلاف كاهن . واخص اعمال الكهنة تعليم الاولاد فالصبيان يعلمهم الكهنة والبنات يعلمهنَّ الكاهنات فيتعلم الصبيان القراءة والكتابة والادارة وبعض العلوم الطبيعية ويتعلم البنات الاعمال البيتية والحياكة والتطريز . ويعتني بآداب الفريقين اعتناءً شديداً . والعقاب صارم

جداً وقد يعاقب المذنب بالقتل فكانت الامة كلها في يد الكهنة لانهم هم الذين يربون اولادها ويهذبونهم

ونفقات الكهنة من اوقاف الهياكل وهي كبيرة كثيرة الريع وكانوا يديرونها بايديهم كما يفعل رهبان النصارى ولهم ريع آخر من تقدمات باكورات الاثمار والغلال ومن النذور الكثيرة التي ينذرها الشعب لكنهم كانوا يفضلون رهبان الاديرة وشيوخ الجوامع والنكايا في انهم يكتفون بالضروري لنفقاتهم واقامة شعائر الدين وما زاد على ذلك يوزعونهُ على الفقراء والمساكين ذلك فرض عليهم مفروض في ديانتهم

واسم الهيكل عندهم تيوكالي ومعناهُ في لغتهم بيت الله وهذا الاسم يشبه ان يكون يوناني الاصل فانهُ باليونانية ذيوكاليا . وشكل الهياكل هرمي كالاهرام المصرية المقطوعة قاعدة الواحد منها اكثر من مئة قدم في مئة قدم وارتفاعهُ اكثر من ذلك كثيراً وهو اربع طبقات او اكثر ينقص بعضها عن بعض ويصعد اليها بدرج من الخارج يدور حولها فيضطر الصاعد الى اعلاها ان يطوف حولها مراراً . وفي اعلى الهيكل برج ارتفاعهُ اربعون او خمسون قدماً فيهِ صورة المعبود الذي اقيم لهُ ذلك الهيكل وامام البرج الحجر الذي تذبح الذبائح عليهِ من الآدميين وموقدان عليهما نار دائمة . والمواقد او المذابح التي من هذا النوع كانت تعدُّ بالمئات فتنار بها شوارع المكسيك ليلاً

وكانت اعيادهم كثيرة كما تقدَّم واحتفالاتهم الدينية يشترك فيها الرجال والنساء والاولاد فيخرج النساء والاولاد باكاليل الازهار والرياحين حاملين تقدمات الاثمار والحبوب او مجامر البخور والطيوب . هذه كانت شعائر ديانة التلتك التي اضاف اليها الازتك الذبائح البشرية قبل الفتح الاسباني بنحو مئتي سنة

ومن اشهر اعيادهم عيد معبودهم تزكاتليبوكا وهو يتلو المهم الاعظم مرتبة ويسمونهُ روح العالم ويقولون انهُ شاب جميل المنظر لا يشيخ ابداً . يختارون لهُ كل سنة شاباً من الاسرى بديع المنظر معتدل القوام لا عيب فيهِ ويقيمون لهُ المعلمين يعلمونهُ ويلبسونهُ افخر الحلل ويطيبونهُ بالطيوب ويزينونهُ باجمل الازهار واطيبها عرفاً واذا سار من مكان الى آخر مشى الغلمان في خدمتهِ كأنهُ ملك رفيع الشأن وهم يسجدون لهُ لانهُ رمز الى معبودهم ويدوم ذلك احد عشر شهراً وفي الشهر الثاني عشر يزوجونهُ باربع عذارى من اجمل بناتهم ويتركونهُ معهنَّ شهراً كاملاً وهم يولمون لهُ الولائم الفاخرة حتى اذا انقضى الشهر خلعوا ثيابهُ المزوقة وساروا بهِ الى هيكل عبر البحيرة وصعدوا على درجهِ فيطرح الازهار التي كان مزدانًا بها وتكسر آلات الطرب

التي تسلّى بها في اسره . حتى اذا بلغ اعلى الهيكل لقيهُ ستة من الكهنة وهم لابسون حللاً مغطاة بالكتابات الصورية وشعورهم مجدلة وجدائلها مسدولة على ظهورهم وساروا به الى حجر الذبيحة وهو قطعة كبيرة من اليشب مقعرة من اعلاها فيطرحونهُ عليهِ ويمسك بهِ خمسة منهم ويشق السادس صدرهُ بموسى حادة من حجر كالصوان وينزع قلبهُ ويرفعهُ نحو الشمس ثم يطرحهُ عند قدمي المعبود الذي يعبد في ذلك الهيكل

هذه هي الوصمة الكبرى على ديانة اهالي المكسيك ولم تقتصر الضحايا على الاسرى الاّ اذا اجدبت البلاد لقلة المطر فيضحون الاطفال الذين يبتاعهم الكهنة من ابناء الفقراء ويضحونهم استجلاباً لرضي معبوداتهم . ولكن قباحة هذا العمل لا تنتهي هنا بل ان الاسير الذي يضحّى على ما تقدم يعطى لآسريهِ فيطبخونهُ ويأكلونهُ ويحتفلون بذلك احتفالاً عظيماً جدًّا رجالاً ونساء وهم يحسبون ذلك شرفاً كبيرًا لهُ ولهم لانهُ ضحّي للمعبود وأُكل في سبيل العبادة . وكثيرًا ما كانوا يفرطون في عدد الاسرى الذين يضحونهم في وقت واحد فقد قيل انهم ضحوا سنة ١٤٨٦ وقتما اقاموا بناء هيكل كبير لهم الوفاً كثيرة دفعةً واحدة ووجد كورتس فاتح بلادهم ١٣٦ الف جمجمة من جماجم الضحايا التي ضُحيت فيها وكأن هذه الوصمة اقنعت اهالي اسبانيا بفساد عمران المكسيك وبانهُ يحلُّ لهم الانتقام من اهلها

وكتابة اهالي المكسيك صورية كالهيروغليف المصري وقد ضاعت قراءتها الآن . وارقامهم العددية ابسط من الارقام الرومانية ولو لم تكن بسيطة كالارقام الهندية . وكانوا يقسمون السنة الى ١٨ شهرًا في كلٍّ منها ٢٠ يوماً ثم يضيفون اليها خمسة ايام حتى تنطبق على السنة الشمسية ويسمونها ايام النحوس . ويقسمون الشهر الى اربعة اسابيع في كلٍّ منها خمسة ايام آخرها يوم السوق . ومزية هذا التقسيم على التقسيم المتبع في اسيا واوربا وافريقية ان الشهور كلها متساوية واليوم من الاسبوع هو هو في كل الشهور فاليوم الاول من الشهر هو الاول من الاسبوع الاول واليوم الثاني من الشهر هو الثاني من الاسبوع الاول واليوم السادس منهُ هو الاول من الاسبوع الثاني وهكذا في كل الشهور . ففي السنة ٧٣ اسبوعاً من اسابيعهم . اما اليوم الذي يزيد كل نحو اربع سنوات فكانوا يتركونهُ ٥٢ سنة ثم يزيدون مرةً ١٢ يوماً ومرةً ١٣ يوماً يقضونها في الاعياد والولائم فكان حساب السنين عندهم ادق من الحساب الشرقي المستعمل الآن في كثير من البلدان

وكانوا يبتدئون في تواريخهم من سنة تقابل سنة ١٠٩١ للميلاد ويقسمون الزمن الى ادوار كل دور ٥٢ سنة والدور الى اربع فرق كل فرقة ١٣ سنة

وكانت معرفتهم بعلم الفلك قاصرة على التنجيم ومعرفة سبب الكسوف واوقات الاعتدالين والانقلابين وكانوا يصنعون المزاول لمعرفة ساعات النهار و يقسمون اليوم الى ١٦ ساعة تبتدئ من شروق الشمس . وهذه الامور لا تعرف الاّ بعد رصد دقيق وحسن نظر في الامور كما لا يخفى

والفلاحة اول المعايش واقدمهما كانت في درجة عالية جدًّا عند اهالي المكسيك وهي ممتزجة بمصالحهم الدينية والمدنية فلها عندهم آلهة متسلطة عليها وشهورهم مسماة بالنسبة اليها وكان يعمل بها كل احد ماعدا الاشراف والجنود — الرجال منهم يحرثون الارض ويعملون بقية الاعمال الشاقة والنساء يزرعن البذار ويقطفن السنابل ويعملن بقية الاعمال الخفيفة . واذا ضعفت الارض من توالي الزرع تركوها بورًا لتستريح وتسترد قوتها. وقد حفروا الترع الكبيرة للري ووضعوا القصاصات الصارمة على من يقطع اشجار الحراج . وبنوا الاهراء الواسعة لخزن الغلال

ومن الاشجار المثمرة التي كانوا يعتنون بزرعها الموز والكاكاو الذي تصنع منهُ الشكولاتا وهذا الاسم مكسيكي الاصل . وكانوا يزرعون القانلاّ و يطيبون بها اطعمتهم واشربتهم

وكان اعتمادهم الاكبر على الذرة الاميركية فكانوا يعتنون بزرعها ويتفننون في طبخها وعمل الخبز منها واستخراج السكر من عيدانها . ويتلوها الصبر فكانوا يصنعون منهُ الورق والمسكر و يستخرجون اليافًا من اوراقهِ يغزلونها و ينسجونها و يطبخون من جذورهِ طعامًا طيبًا اي انهُ كان لهم منهُ طعام وشراب وكساء

وكان لهم عناية خاصّة باستخراج المعادن كالذهب والفضة والرصاص والقصدير والنحاس . لكنهم لم يكونوا يستعملون الحديد على كثرتهِ في بلادهم لما في سبكهِ من الصعوبة فاستعملوا بدلاً منهُ مزيجًا من النحاس والقصدير كما فعل المصريون قبلهم . وكانوا يقطعون بهِ اصلب الحجارة كالقوفا والبرفير والزمرّد . و يسبكون الآنية من الذهب والفضة وينقشونها نقشًا بديعًا باقلام النحاس المقسّاة بالقصدير . وكان لهم في مزج المعادن ولحمها مهارة كبيرة حتى اذا مثّلوا الاسماك والطيور جعلوا بعض ريشها وحراشفها من الذهب و بعضها من الفضة واعترف لهم الاسبانيون بالتفوّق عليهم في صناعة الصياغة . وكذلك كانوا ماهرين في صناعة النقش والتمثيل فنرى الصور في حجارة مبانيهم منطبقة على الحقيقة اشد الانطباق

ومن بدائع مصنوعاتهم قطعة كبيرة من حجر البرفير الاسمر ثقلها نحو خمسين طنًّا اي اكثر من الف قنطار مصري اتوا بها من مكان يبعد عن عاصمتهم اميالاً كثيرة فيها الجبال والاودية والانهار الكبيرة وقد اضطروا ان يقيموا لها الجسور فوق الانهر لنقلها ووقع بها واحد من هذه الجسور فعانوا في رفعها من الماء مشقة عظيمة كما عانى الانكليز في نقل المسلّة المصرية

الى بلادهم . ثم رسموا عليها الرسوم الهندسيَّة والفلكية ممَّا يدلُّ على براعتهم في العلوم والفنون

وهم اول من استخرج صبغ القرمز ومن بلادهم أُتي بهِ الى أُوربا وكانوا يصبغون بهِ القطن والياف الصبر ويزجون منسوجاتهم القطنية بصوف الارانب وغيرها من الحيوانات ويطرزونها تطريزًا بديعًا باشكال الازهار والاطيار

وابدع صنائعهم صناعة نسج الريش فان الطيور عندهم كثيرة فائقة في تزويقها وبرقشتها فكانوا ينتفون ريشها ويصنعون منهُ حللاً لم ترَ العين اجمل منها

ولم يكن عندهم نقود مضروبة لكنهم كانوا يتعاملون بالتبر يضعونهُ في ريش الطيور بمقادير موزونة ويتعاملون ايضًا بقطع القصدير مسبوكة في شكل حرف التاء الافرنجيَّة ويبزر الكاكاو موضوعًا في اكياس صغيرة

وكان للتجارة عندهم مقام رفيع جدًّا فيضرب تجارهم الى البلاد القاصية ومعهم البضائع والسلع من الانسجة والمصوغات والعبيد ويأخذون معهم الهدايا الفاخرة الى رئيس البلاد التي يقصدونها للاتجار فيها ويكون مع التاجر كثيرون من الحملة لحمل البضائع ولا يزيد حمل الواحد منهم على عشرين اقةً لانهُ لم يكن عندهم دواب لحمل البضائع ويكون معهُ ايضًا حرَس مسلح خوفًا من الغارات واذا اعتدى عليهِ احد ولم يستطع صدَّهُ استنجد بحكومة بلادهِ فتنجدهُ بالجنود ويكون ذلك سبيلاً للفتح وامتلاك البلدان كما يفعل الاوربيون في هذا العصر

وكان للتجار مجالس خاصة تدير امورهم ولها شأن كبير في البلاد حتى يستشيرها الملك في مهامهِ وهي تقضي بين التجار في الدعاوي المدنية والجنائية ايضًا

ولا يخفى ان احوال الامم ومنزلتها من العمران لا تبين في شيء كما تبين في احوال بيوتها ونسبة الزوج الى الزوجة ونسبة الاثنين الى اولادهما وقد كان اهالي المكسيك من هذا القبيل في درجة حسنة جدًّا . كان الزواج عندهم مكرَّمًا تكريمًا دينيًّا وكان الرجال يكرمون نساءهم ويعفونهنَّ من كل الاعمال الشاقة فيقتصرنَ على الاعمال البيتيَّة ونحوها ممَّا ليس في عملهِ مشقة كبيرة كالغزل والنسج والتطريز ويشارك النساء ازواجهنَّ في كل الحفلات الدينيَّة والمدنيَّة والافراح والولائم واذا جاء الرجال والنساء وليمة وجدن الدار مزدانة لهم بازلاهار ومعطَّرة بالطيوب وتقدم لهم الاباريق والمناشف لغسل ايديهم قبل الطعام ثم يقدم التبغ مطيَّبًا بالمواد الطرية وسكائرهُ موضوعة في افواه من الفضة او الذبل (عظم السلاحف) . ويجلس الرجال وحدهم على المائدة والنساء وحدهنَّ وتقدَّم الوان الاطعمة واكثرها من لحم الصيد ولحم الدندو (الديك الحبشي) معالجة بالبهارات المختلفة وتملوها الحلويات محلاَّت بسكَّر الذرة وتزين

المائدة بآنية الفضة والذهب . وكؤوسهم ومعالقهم من الفضة والذهب والذبل وشرابهم من الكاكاو المطيب بالفانلا

واذا شبعوا من الطعام قام الشبان منهم للرقص على نغم الموسيقى وبقي الكبار يشربون الى ان تلعب سؤرة الخمر برؤوسهم اما الشبان فلا يحل لهم ذلك . وتنتهي الوليمة بتفريق الحلل الفاخرة على المدعوين

هذا وسنعود الى تاريخ الفتح ومقدماته وتتائجه وفي ذلك من الحوادث والنوادر ما يكاد يكون كالقصص الموضوعة لغرابته

باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاعتذار وجوب فتح هذا الباب ففتحناه ترغيباً في المعارف وإنهاضاً للهمم وتشحيذاً للاذهان . ولكنّ العهدة في ما يدرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف ونراعي في الادراج وعدمه ما يأتي : (١) المناظر والنظير مشتقّان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انّ الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيره عظيماً كان المعترف باغلاطه اعظم (٣) خير الكلام ما قلّ ودلّ . فالمقالات الوافية مع الايجاز تستحق على المطوّلة

طريقة الاستاذ شانتيس في علاج الحمى التيفوئدية

اجتمع مساء اليوم خلق كثير في القسم العملي من مدرسة الطب لسماع خطاب الاستاذ شانتيس في طريقة علاجه للحمى التيفوئدية بالمصل الذي اكتشفهُ حديثاً . ولما كان هذا الاكتشاف على جانب عظيم من الاهمية رأيت ان اقف عليه من مستنبطه مع انني في باريس متفرغ لامراض العين دون سواها وان ابعث بخلاصة خطبته لتدرج في مجلة المقتطف فيطلع عليها القراء ولا سيما الاطباء منهم

بيّن الاستاذ اهمية الطرق الجديدة في علاج بعض الامراض بانواع من المصل المقاوم لها وما نتج عن ذلك من الفوائد في هذه السنين الاخيرة وبعد ان ذكر شيئاً عن مصل رو في علاج الدفتيريا والمصل الشافي في لدغ الافاعي الذي وجدهُ احد اساتذة مدرسة ليل والمصل المضاد للطاعون واظهر باجلى بيان ما استفادهُ الانسان من هذه الاكتشافات التي تخلد ذكر